

نظمها كما أشار الناسخ في أواخرها ، يوم الجمعة المباركة ، التاسع والعشرين من شهر الحرم عاشورا ، أول عام عشر بعد تسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام (٢١) وفرغ الناسخ بن دوغان من تحريرها ضحوة يوم الجمعة سابع شهر رجب عام ثلاث وثمانين وألف ، أو أربع وثمانين وألف ، وكتبت بخط نسحي ، وعليها تعليقات في هوامشها لا تمت بصلة إلى المادة العلمية أو تضيف شيئاً جديداً إلى متنها ، وقد أصاب الرسالة البلب والاحترق ، وكتب النظم فيها بالخمرة (٢٢) .

أهمية الطب في حياة الناس

قال ابن أبي أصيبعة : إن صناعة الطب أمر ضروري للناس منوطه بهم حيث وحدوا ومتى وحدوا إلا أنها قد تختلف عندهم بحسب المواضع وكثرة التغذية وقوة التمييز ، فتكون الحاجة إليها أمس عند قوم دون قوم (٢٣) وأشار إلى أصول وجدور هذا العلم ، والحاجة التي دعت الناس إليه ، وأول من فطن إلى أهميته ، وبسط البحث ومد أطرفه فيه ، فإذا أراد الباحث أن يستقصى أمره كان خليقاً به أن يبحث عن هذه الأصول والجدور ، فسيلاحظ أن التجارب الأولية في تناول الأعشاب والأطعمة ومدى فائدتها على تقويم الصحة ، كانت هي الخلق الأول في هذا السبيل .

وفي إشارة له تبحث في أصول وجدور هذا العلم ، وكيفية استخراجها ، تفيد أن المستخرج للطب هم السحرة من أهل اليمن (٢٤) مستفيضاً في ذكر آراء كثيرة أخرى في هذا الصدد ولا حاجة لأن نعرض لها .

وأياً ما كان ، فقد وقف العلامة بحرق على هذه الفكرة ، فكرة تقويم الصحة عند العافية أو المرض ، وأودعها رسالته مشيراً إلى أن صناعة الطب وضعت للناس لتفيدهم الصحة عند المرض ، وتحفظ الصحة عليهم (٢٥) فهي إذن فطرية نشأت في نفوسهم ، وترعرعت في بيئتهم وأحدثت في الانتشار من طريق التجارب المتعددة والحوادث الملحة لتقويم الصحة ونفاذي المضار التي تلحق بالبدن والنفس .

ويغلب على الظن أن العلامة بحرق قد نظم - بادئ ذي بدء - المنظومة في أصول علم الطب ، ثم شرحها في العام العاشر بعد التسعمائة من الهجرة ، بيد أننا لم نقف على أصول المنظومة التي وردت مكتوبة بالخمرة في الرسالة نفسها .

وكيفما كان الأمر ، فقد أرجع علل الإنسان وأدواءه إلى الأربعة العناصر من ريح و نار ، وتراب ، وماء ، وإلى الأربعة الطبائع والفصول ، مؤكداً أن جمهور العلماء يرون ضرورة التوفيق بين هذه وتلك ، وعدم الخلط بينهما ، فمتى أدرك المرء طبيعة هذا الفصل أو العنصر ، وما فيه من منافع ومضار لصحة البدن ومرضه ، استطاع الاستفادة من مناعه وتجنب مضاره ولهذا فإنه يرى - على سبيل التمثيل لا الحصر - عدم تناول ثمار وفواكه فصل ما ، نضجت في فصل آخر ، وحصدت في غير وقتها ، فالأربعة الأوجه على حد قوله هي مدد جسم الإنسان وبها قوامه ، ومنها صلاحه ، كما أن قوام العالم بالأربعة الفصول التي هي الصيف والخريف والشتاء والربيع (٢٦) .

وقسم علم الطب إلى قسمين :-

١ - حفظ الصحة الموجودة بالتدبير .

٢ - جلب الصحة المفقودة بالعلاج .

كما قسم رسالته إلى ثلاثة أبواب :-

١ - باب في تدبير الصحة .

٢ - باب في طبائع بعض الأغذية والأدوية .

٣ - باب في العلل الحادثة بزيادة الطبائع وأسبابها وعلاماتها وعلاجها .

الباب الأول : تدبير الصحة

يميل العلامة بحرق إلى الاعتقاد بأن الاقتصاد في كل مناحي الحياة ، سبيل من سبيل الحياة السليمة ، فهو يحرص على الوسطية ، ويورد الأمثلة الدالة عليها فيما يتعلق بالجماع ، والحركة

**سأكون في تلك الصناعة مرسلاً
أو مادحاً للقوم أو متفخلاً
عن يساوم بخها متبذلاً (١٢)**

فماك من بين البرية عاصراً

فأحييت آسار الإله الدوائر

شواهد تبدو عليك ظواهر (١٣)

**ولئن نسباً ابن الحسين فإنني
أبدي العجاب إذا برزت مفاخرأ
لكنني رجل أصمون بضاعتي**

ومدح السلطان عامر بن عبد الوهاب فقال :

أبى الله إلا أن تحوز المفاخرأ

عمرت رسوم الدين بعد دروسها

فأنت صلاح الدين لا تك ههذه

ومن بديع شعره منظومته في أصول علم الطب ، التي ألمح إلى الغرض من نظمها ، وهو الإشراف على أصول الفن ليحرج الإنسان عن حيز الجهل (١٤) ومن ضيع الأصول حرم الوصول على حد تعبيره (١٥) .

أما الشر ، فقد مهر فيه على حد قول المؤرخ العيدروس (١٦) ، واشتعل في الديوان الأميري الكثيري ، ومع أننا لم نقف على نثره الديواني ورسائله الديوانية التي حبرها وحررها إلى الملوك والساسة ، فالشي الذي لا مراء فيه أنها جديرة بأعمق الاهتمام لرصانتها ومثانتها كما توحى بذلك أساليبه في الرسالة التي بين أيدينا ، ففيها قدر من الجودة والمهارة اللغوية وبعد الرؤية وإحالة النظر .. وإذا عقدت مقارنة بين نثره ، ونثر بعض الكاتبيين والمؤرخين في القرن العاشر الهجري في حضرموت على سبيل المثال لا الحصر ، ستجد نسيحاً لغوياً متيناً لا تشوبه شائبة من اللهجات العامية ، التي كثيراً ما يستخدمها بعض كتاب ومؤرخي القرن العاشر الهجري ، هذا إلى جانب جودة عرضه للمادة العلمية الطبية في الرسالة ، ولا تغلو ونسرف في ذلك ، فالمادة غنية من حيث كونها قد استفاضت في ذكر طرائق استخدامهما اليمانيون الحضارمة في التداوي والتطبيق بالأعشاب ، والفواكه والخضار ، والأطعمة كافة .

وفاته

وأفادت الروايات التي ساقها بافقيه والعيدروس (١٧) أنه توفي مسموماً في كمباية من أرض الهند ، في ليلة العشرين من شعبان عام ثلاثين وتسعمائة هجرية ، ويعزو بافقيه ذلك ، إلى أن حساده من الوزراء الهنود ، الذين أهاج حفيظتهم حظوته لدى السلطان المظفر ، قد تأمروا عليه وسموه ، فإذا صحت هذه الرواية فيكون قد أكمل واحداً وستين عاماً ، في حين انفرد ابن حميد برواية أخرى ، تفيد أنه توفي في هينن في عام ستة وخمسين وتسعمائة (١٨) عن عمر ناهز السابعة والتسعين ، ولا مشاحة في أن الشك الكثير يسود في هذه الرواية ، وهذا ما جعل المؤرخ ساوزير يكتفي ببيان تاريخ مولده ، ولكنه أشار أنه لقي حتفه مسموماً في الهند للسبب نفسه (١٩) .

وكيفما كان الحال ، فنحن نرجح صحة الروايتين اللتين ساقهما بافقيه والعيدروس ، فإن حميد نقل كثيراً من رواياته وحوادثه المتعلقة بمجريات الأحداث في القرن العاشر الهجري من المؤرخ بافقيه ، ففي روايتهما ظل من الحق ، وحظ من الصحة ، وهذا ما تميل إلى الأخذ به ، وفوق كل ذي علم عليم .

"رسالة في الطب"

طبيعة المخطوطة

لا تتجاوز عدد أوراق هذه المخطوطة " الرسالة " الستة عشر ورقة ، وصفها الناسخ محمد بن صالح بن دوغان بأنها رسالة عظيمة في الطب للإمام العالم العلامة الولي الشيخ بحرق على حد تعبيره (٢٠) وهي شرح لأرجوزة في الطب ، لم نقف على أصولها ، فلعل بحرق شرع في